

المحاضرة الثانية

اختيار موضوع البحث التاريخي

تعدّ مرحلة اختيار موضوع البحث من أصعب وأهم مراحل البحث العلمي التي تواجه الباحث، ذلك أنها تمثل بوابة الميدان الذي سيتجه اليه الباحث ويتعايش معه طيلة فترة البحث، فإن تحكمت العشوائية في اختيار الموضوع بسبب عدم وضوح الرؤية العلمية، أو تعجّل الباحث لإنهاء مرحلة أكاديمية، فإنه يُصبح عرضة للإخفاق في ميدان بحثه، أمّا إذا سبق اختيار الموضوع قدر كبير من التخطيط والتأمل والدراسة المتأنية المبنية على تصوّر شامل، فإن ذلك يمكن الباحث من رسم أبعاده وحدوده وإعداد مخطّطه، وإمكانية عرض مفرداته بموضوعية علمية، بما يجعل الباحث يخرج من دائرة الوهم إلى مجال الحقيقة والواقع الملموس .

1- اختيار موضوع البحث: الحقيقة والأهمية.

إنّ عملية اختيار موضوع البحث هي في الأصل عملية تحديد القضية أو المشكلة العلمية، التي تتطلب حلاً علمياً انطلاقاً من عدّة فرضيات علمية بواسطة الدراسة والبحث والتحليل؛ لاستكشاف الحقيقة أو الحقائق العلمية المتعلقة بالمشكلة، وتفسيرها واستغلالها في حلّ ومعالجة القضية أو المشكلة المطروحة للبحث العلمي . ذلك أنّ إحساس الباحث الملحّ بوجود موضوعٍ جدير بالدراسة أو شعوره بوجود مشكلة يُراد حلّها، هما في الحقيقة البداية المنطقية للقيام ببحث تاريخي علمي أصيل، وهذا هو السبيل العلمي إلى الإبداع الفكري والأصالة العلمية .

وعلى هذا الأساس فإن مسألة اختيار موضوع البحث هي مسألة ذات أهمية قصوى ضمن المنهج الناجح للباحث المستعد والمحترف، وعلى إثرها يتحدّد —مبدئياً— سرّ النجاح في مسار البحث، ذلك أنّ الاختيار الموفق هو جزء كبير من البحث في حدّ ذاته، وهو عامل مساعد للباحث على المتابعة والمثابرة ومضاعفة الجهد للاستمرار في موضوعه حتى بعد إنجازها؛ من خلال فتح أبعادٍ جديدة تخدم مجال تخصّصه المستقبلي، وتقديم معطيات ومعلومات وإضافات للمعرفة الإنسانية في تخصّصه، بما يمكنه من تحديد موقعه في مسيرة التواصل العلمي وتمييز الأعمال اللاحقة من السابقة .

2- واقع اختيار موضوع البحث بين الباحثين المبتدئين والباحثين المختصين في التاريخ:

يختلف اختيار موضوع البحث التاريخي باختلاف وضع الراغبين فيه من حيث مستواهم العلمي وتحصيلهم الثقافي، فالطالب المبتدئ في المرحلة الجامعية في التخصص لا يستوي مع طالب الدراسات العليا الذي أنهى دراسته الجامعية، وبدأ يتطلع للحصول على درجة الماجستير فالدكتوراه، وكلاهما لا يستويان مع المتخصص الكبير أو الأستاذ الذي أمضى حياته في كتابة الأبحاث التاريخية .

ومنه فالطالب في المرحلة الجامعية الأولى ضمن تخصص التاريخ على سبيل المثال، لا يُنتظر منه تقديم بحثاً علمياً أصيلاً بالدرجة الأولى، بقدر ما هو مطلوب منه التدرّب والإعداد والاستيعاب، ومن ثمة الإلتقان للبحث التاريخي، إذ لا تشكل مسألة اختيار الموضوع ضغطاً كبيراً على طلبة الدراسات الأولية في الجامعة؛ باعتبار أن أستاذ المادة هو الذي يقرّر في معظم الحالات اختيار مواضيع البحوث الصفية فيكلفهم بإعدادها، وكأنّ اختيار الموضوع في هذه المرحلة يتم بصفة إرشادية من الأساتذة الذين يقترحون على طلبتهم مواضيع تاريخية متنوعة لها علاقة بالمواد التي يدرسونها في مساهمهم التكويني، بما يمكنهم من التعرف على الموضوع والإحاطة به بكلّ سهولة .

كما أنّ الأستاذ هو الذي يدلّ طلبته في هذه المرحلة؛ أي المرحلة الجامعية الأولى على وسائل وأساليب تحصيل المادة العلمية وجمعها، تلك الوسائل التي ستصبح أسلحة فعّالة لدى الطلبة مستقبلاً بما يُساعدهم على البحث العلمي الأصيل المبتكر

. وعلى هذا الأساس فإن الغاية من البحث في هذه المرحلة ليست هي الوصول إلى نتائج وحقائق علمية جديدة وغير معروفة، وإنّ المقصد الأساسي من ذلك هو تدريب الطلبة على ممارسة البحث وفق القواعد المنهجية الأكاديمية المعروفة، ولو من خلال مواضيع عامة وشاملة تقترح من طرف أساتذتهم في مختلف المواد التعليمية المختلفة.

وعلى العكس من ذلك تكون مهمّة اختيار موضوع البحث التاريخي أكثر صعوبة بالنسبة لطلبة الدراسات العليا (ماجستير، دكتوراه)، خصوصاً ونحن نعلم أنّ بحوث هذه المرحلة غالباً ما تتميز بالجدية والأصالة والابتكار؛ باعتبار أنّها ستكون جزءاً أساسياً من المواد التي يجب أن يستوفها الطالب للحصول على الشهادة العلمية العليا.

وعليه فإن مسؤولية اختيار الموضوع في هذه المرحلة تأخذ بعداً مختلفاً عمّا كانت عليه إبان فترة الدراسات الأولية؛ ذلك أنّ الاختيار فيها يقع على عاتق الطالب الذي يجب أن يقرأ ويطالع الكثير من المصادر والمراجع التي لها علاقة قريبة بالموضوع، على أن يكون الاختيار متناسباً مع قدراته وإمكاناته، وبالتشاور مع الأستاذ المشرف الذي يوجه الباحث وينصحه ويوجهه في إطار العلاقة التكاملية التضامنية

ضمن مجال البحث العلمي، باعتبار أن الصلة العلمية بين الطالب والمشرّف يجب أن تتعقد قبل تسجيل الموضوع واختياره نهائياً بما يضمن التجاوب الفعّال بينهما، هذا فضلاً على أن تكون هنالك صلة بين الموضوع وتخصّص المشرّف حتى تتوسّع الفائدة.

3- مسألة اختيار موضوع البحث بين الرغبة الشخصية والموضوعية العلمية:

تعتبر مسألة اختيار موضوع البحث التاريخي من أهم القضايا التي تخضع لواقع الرغبة الشخصية والموضوعية العلمية. ولا شك أنّ أفضل البحوث أرفعها ما كان مصدرها الإلحاح الداخلي والرغبة الذاتية، فالاختيار الشخصي للبحث مهمّ جداً في تقدّمه وتفوّقه، ولا تكتمل غاية البحث إلّا إذا كانت الرغبة الذاتية لاختياره قائمة على أسس علمية موضوعية؛ تستهدف إمطة اللثام على قضايا تاريخية مغمورة وغير معروفة، بنظرة صادقة ونزيهة بعيدة كل البعد عن التعصّب والتحيز.

وعليه يمكن القول أنّ اختيار موضوع البحث التاريخي يجب أن يتم بدافع الرغبة الشخصية البناءة والمهادفة علمياً؛ أي تلك التي تؤسّس لمنطق البحث العلمي الأصيل الذي يقدّم إضافات جديدة لحدود المعرفة الإنسانية.

4- معايير وشروط اختيار موضوع البحث:

عندما يقرّر الباحث اختيار موضوع ما للدراسة فإنّ عوامل عدة تؤثر في هذا الاختيار، كأن يكون الباحث مقيداً باختيارات المؤسسة التعليمية التي ينتمي إليها أو الجهات الممولة لمشروع البحث، وفي مثل هكذا حالات ينبغي على الباحث أن يتأكّد من كون اختصاصه وكفاءته تناسب هذه المؤسسة وهذا المشروع، وأن لا يكون موضوع البحث الذي سيكلف به مشروطاً بمنهجية أو قيود تحصره بمسارٍ لا يتبنّاه الباحث.

كما يجب أن يعكس اختيار الموضوع الاهتمام الحقيقي للباحث دون أن يكون الاختيار عفويّاً، وفي هذا السياق ينبغي التركيز على أهمية العلاقة الوجدانية بين الباحث وموضوع البحث؛ لأنّ هذه الرابطة هي التي تحدّد حرص الباحث وصبره في تفصي الحقائق العلمية، خصوصاً ونحن نعلم أنّ البحث الذي يعبر عن هموم الباحث المعرفية هو في حد ذاته جزء من شخصية الباحث.

ومن هذا المنطلق يتعيّن على الباحث عدم التسرّع في عملية اختيار الموضوع، مع ضرورة مراعاته في ذلك لجملة من المعايير والشروط (القواعد والأسس) التي يمكن إيجازها في النقاط التالية:

- الدقة في اختيار موضوع البحث والتأكّد من كونه لم يُدرس من قبل بهذه الإشكالية وبنفس المنهج.

- التأكّد من توفّر المصادر الأساسية لهذا الموضوع مع إمكانية الوصول إليها.

- أن تتوفر في الموضوع مؤشرات الجدية والابتكار.
- استحقاق الموضوع لما سيذلل فيه من جهد، وأن هذه الدراسة لن تذهب في أدراج المكتبات وتنسى مع مئات الرسائل التي لم تقدم أية إضافة رغم ما بُذل فيها من جهد.
- التأكد من وضوح وجهة الموضوع التخصصية مع النظر بجدية في حدود عنوان البحث بما يمكن الباحث من الحركة داخل إطاره، ويُستحسن في هذا السياق حصر الموضوع في دائرة التخصص ضمن الإمكانيات المتاحة مع مراعاة محدودية زمن البحث.
- اختيار المواضيع التي تهتم بمعالجة الظواهر الحديثة التي تطرح جدلاً واسعاً حول مسائل معينة، بما يجعل البحث فيها فرصة مناسبة للحسم العلمي في النقاش الدائر بشأنها.
- مقارنة ومقاربة موضوع البحث مع الدراسات السابقة، وذلك قبل اختياره بصفة رسمية؛ ذلك أن استعراض الأعمال المنجزة من قبل حول الموضوع من شأنها أن تمكن الباحث من الإحاطة بموضوع بحثه وضبطه بصورة أدق.

وفي سياق حديثنا عن معايير اختيار موضوع البحث، فإننا نرى أنه من الأهمية بما كان أن نشير إلى بعض الأمور التي يُستحسن بالباحث أن يتفادها؛ لأجل تسهيل مهمة البحث وتحقيق الأهداف المرجوة، ولعل من أبرز هذه الأمور ما يلي:

- الابتعاد عن الموضوعات التي يشتد حولها الخلاف كونها تحتاج إلى بحث معمق يقوم على الفحص والتمحيص، إذ من الصعب على الباحث أن يكون موضوعياً في ظل الاختلاف القائم حولها.
- الابتعاد عن المواضيع العلمية المعقدة والمواضيع الخاملة التي لا تبدو ممتعة.
- الابتعاد عن المواضيع التي يصعب الوصول إلى مادتها العلمية.
- الابتعاد عن المواضيع الواسعة جداً أو الضيقة جداً، وكذا الموضوعات الغامضة التي يتبعها غموض في الفكرة، والموضوعات الميدانية التي يلفها شيء من السرية والغموض في الممارسة وفي تفسير وتأويل نشاطها.

5- عنوان البحث: المفهوم وشروط الصياغة:

يُعرف عنوان البحث على أساس أنه صياغة علمية باستخدام كلمات مفتاحية، محدّدة بوضوح، ومنتقاة بعناية من قبل الباحث؛ للدلالة على مشكلة البحث ومضمونه والإجراءات المتبعة لتنفيذه. وبهذا يكون عنوان البحث بمثابة المعلم البارز الدال عليه، أو كما يقال هو واجهة البحث الإعلامية، باعتبار أن موضوع البحث يفهم في الغالب من عنوانه.

وباعتبار العنوان هو هوية البحث من حيث الانتماء الموضوعاتي والمعرفي، فإن صياغته تقتضي التزام

الباحث بمجموعة من التقنيات والشروط التي يمكن إيجازها في النقاط التالية:

- التروي في صياغة عنوان البحث بأسلوب علمي رصين بعيداً عن العبارات الدعائية المثيرة التي لا تتناسب وأسلوب العصر الحديث، ويستحسن استشارة أهل التخصص واللغة أثناء صياغته.

- الحرص على انتقاء الكلمات والتراكيب اللغوية السهلة الميسرة في صياغة العنوان، التي يشترط أن تكون (الصياغة) بأقل الكلمات والألفاظ الدالة عليه.

- أن يدلّ عنوان البحث من حيث الصياغة على مجال تخصّصه وعلى حدود البحث وأبعاده الزمانية، المكانية، البشرية... الخ.

- يشترط أن تكون صياغة العنوان ذات صلة منهجية بجميع الأبواب أو الفصول.

- أن يشير العنوان بوضوح إلى مشكلة البحث العلمي بحيث تتجسّد في مضمونه فكرة البحث الرئيسية.

يمكننا التأكيد في خاتمة هذا الدرس على الأهمية البالغة لخطوة اختيار الموضوع في مسار البحث العلمي ومستقبله ضمن مختلف التخصصات، ذلك أن اختيار الموضوع هو الذي يدلّ عن المسعى الحقيقي للبحث بكلّ تجلياته وإجراءاته، وعليه يتوقف نجاح أو فشل البحث في غالب الأحيان، إذ ليس كلّ موضوع يعجب الباحث هو موضوع قابل للتناول بالضرورة، كما أن الموضوع لا يتأتى هكذا من باب الصدفة أو يُعطى جاهزاً، بل يجب على الباحث أن يسعى بجهّد ووعي وتفكير مستمر لاختيار الموضوع الملائم للدراسة والبحث والتقصي، بما يضمن تسهيل مهمة البحث وتقديم الإضافة العلمية في مجال التخصص.